

الشارع

للاستاذ عبد الشافي اللبان

الشارع موضوع الحديث قد يبدو غريباً غير مألوف ، والواقع أن هذا ما شعرت به حين طلب إليّ أحد الأصدقاء أن أحاول الكتابة عنه ، على اعتبار أنه المرة التي تنعكس عليها حياتنا الخاصة والعامة على السواء ، بما فيها من شؤون وشجون ، أو على اعتبار أنه المنظر الخارجى البعيد عن النفس والخذاع والتريف لهذه الحياة .

ففى الشارع تبدو واضحة جلية أساليبنا فى السلوك والآداب ، فى المعاملة والتعامل ، فى التزهد والرياضة والترويح عن النفس ، كل ذلك دون طلاء أو إخفاء للحقائق .

والكلام عن الشارع موضوع شائق طريف ، يكفى فيه أن تستقطع جزءاً من القاهرة وتجوس خلاله فى جولة قصيرة بقصد الملاحظة والدرس والاستنتاج ، وتأخذ على سبيل المثل وتسهلاً لمهمتنا فى العباسية نقطة الابتداء فى جولتنا مارين ب ميدان فاروق ، فالحسنية ، فشارع فاروق ، فيدان المنكة فريدة (العتبة الخضراء سابقاً) فيدان الأوبرا ، فشارع قصر النيل ، فشارع سليمان باشا حتى "الإسماعيلية" فهذا هو طريق اليومى إلى وزارة الخارجية .

والآن إذا تكرمتم بدأنا جولتنا وأظننا ، بدون تكليف أو توريظ ، سنركب الترام فهو وسيلتنا العادية للانتقال ، وبطوئه يسمح لنا بملاحظة الأشياء فى هدوء يمكننا من الحكم عليها ، وسنكتفى بالوصول إلى نقطة اتصال شارع سليمان باشا بشارع فؤاد الأول ، وأرجو المَعذرة فى تعديل برنامجنا خوفاً من أن يطول بنا الوقت .

وما دام الترام سيؤدى لنا هذه المساعدة القيمة فنحن عينا أن نخصه بكلمة قصيرة ، خصوصاً وهو يعتبر جزءاً متمم فى الكثير من شوارعنا ، تجلس فيه قترى كما ترى فى الشارع معرضاً هائلاً من الأزياء بين العمامة والطربوش والقمبة والطاقيّة والباسية والجلابية والقفطان والبدة ، وكلها تكون مجموعة غريبة من الألوان نسقتها هواء مختلفة ، وأذواق متباينة . واختلاف الزى مسألة تكلم الكثيرون فيها بحيث أصبح مجرد الإشارة إليها من القول المعاد ، ولكن هل لنا أن نرى فيها مقياساً لتنوع الآراء وتشعبها فيما بيننا ، وصورة لانشقاقنا وتفرق كلمتنا . أرجو ألا يكون الأمر كذلك ؛ وإلا فإصعب مهمة حمام السلام عندنا ؛ وهو

اليوم أشد ما يكون احتياجا للتشجيع والتعزيد ، على أن مسألة الزى ليست بالتاكيد برحانا على وفرة أذواقنا وميولنا الفنية . فالصورة العامة التي يعطيها اختلاف الملابس حتى ولو كان كل نوع منها جميلا على حدته ، صورة لا يستريح النظر إليها ولا يقبلها أى ذوق فنى بحال من الأحوال .

لا تكاد تجلس فى الترام حتى يقفز إليك فى حركات بهلوانية غريبة جيش حافل من الشباب المقتول العضلات الضخم البنيان يبيعون إليك "حلاوة سمسية" "إبر لو ابور الحاز" ، و "إبر ودبا بيس" "أقلام رصاص" "ظروف وجوابات" "بسكويت وشكولاته نسله" . وهكذا ينقلون إليك أسواقا كاملة لتجهز منها منزلك ومكتبك وترضى أولادك دون أن تتحرك من مكانك . وبعد ذلك يقولون إن فى مصر أزمة متعطين . هذا ولا شك نوع من أنواع الاستجداء يحس بثقله كل من كتب عليه ركوب الترام وأقل منه أن تكون جالسا مطمئنا فى أمان الله فإذا بشاب أو طفل يقفز قابعا بين قدميك لتجبيه عن الكسارى الذى لورآه لنسبت بينهما مطاردة حامية قد انتهت بحرب حاطقة تلقى بالطفل بين عجلات الترام .

وهكذا يعطيان الترام صورة لمشككتين غير مشكلة الزى لا تزالان فى انتظار من يوفق لهما : الأولى مشكلة الباعة المتجولين على اعتبار أنها نوع من أنواع البطالة له أثره السيئ على الأمن والصحة والأخلاق العامة . والثانية مشكلة الأولاد فى الشوارع ومسئولية الأهل والحكومة فى سددها - هؤلاء الصبيان بعضهم مذهب وبعضهم معذور ، أما المذهب فأننا نرجو له ولأهله الهداية . وأما المعذور فله علينا حق المساعدة . المعذور يقوم من منزله فى أمبابة مثلا ليعمل على كسب قوته فى العباسية على أن يتناول فى آخر النهار أجرة اليومى دراهم معدودة لو صرفها فى الركوب لكان كمن يعمل بلا مقابل ، وإذن فعليه أن يجتهد فى استعمال الترام بحانا ليصل بهذه الدراهم سليمة إلى الأفواه الجائعة التى تنتظرها ، ولست أدري كم للترام منذ إنشائه حتى الآن من أمثال هذه الضحايا : رجال وشباب وفتيان ، لم يفكر أحد فى شأنهم حتى اليوم ، مع أنه من المعروف فى كثير من البلاد أن هناك تذاكر مخفضة ، تصرف بين الساعة الخامسة والسادسة صباحا ، وهى الساعة التى يذهب العمال فيها عادة إلى أعمالهم ، ويستمر مفعولها حتى الساعة الثامنة مساء وهى المفروض أن يعود العامل فى أثناءها إلى بيته . وقيمتها لا توازى نصف القيمة العادية لتذكرة الذهاب ، فهل لم يحن الوقت بعد لإيجاد تذكرة ذهاب وإياب بثلاثة ملاليم مثلا تصرف للطبقات العاملة فى ساعات رواجها المبكر مساعدة لأفرادها المجدين المحتجين ونأمينا لحياتهم .

أظننا انشغلنا بالترام طويلا . فلتلق نظرة على شارع فاروق : ما للناس يمشون فى وسطه جماعات وفرادا رغم الحملة التى نظمها قلم المرور واستعمل فيها السيارات والأبواق لدعوة

الناس إلى المشي على الرصيف؟ وما السر في أنهم يرفضون الإصغاء إلى هذا النداء الحكيم مع مافيه من تأمين لحياتهم وأرواحهم؟ السر أن ليس هناك رصيف لشارع فاروق اللهم إلا بعض مصاطب مقطعة يشغلها بعض المقاهي أو أصحاب المحال التجارية ومن عندهم من الزائرين. وإذن لا حيلة للجمهور في أن يسلك طريقه على هذا النمط من الفوضى . وإذا كنا في هذا الزمن الذي يعتبر المرور فيه من كبريات المسائل ، لا نؤمن بفائدة الرصيف ولا نريد أن نفرض أن للشوارع مهمة مدنية واجتماعية يجب أن تؤديها فما على أبواق قلم المرور إلا أن تتحلى بالصمت الكريم .

وعلى طول هذه الشوارع حتى شارع فؤاد ظاهرة تسترعى النظر: كثرة المقاهي التي تضع تكلايا النحل بالمجاهير الصاخبة . على أن ضجيجها يختلف باختلاف المواقع ، فقاهي شارع فاروق والعتبة تمتاز برنين الزهر وضرب قشاط الطاولة وكركمة الشيشة ، وهذه الكركمة قد تقابلها في المنزل العاصر زفرات الزوجة المهجورة أو عويل الطفل الصغير. أما قاهي شارع فؤاد الأول فهي أقرب إلى السكون وإن كانت تشترك كرميلاتها في جلب الحزن والألمى إلى قلوب كثيرة عزيزة وفي الاستخفاف بما وعيناه في صغرنا من أن الوقت من ذهب ، وأنه كالسيف إن لم تقطعه قطعك . ومن المناظر المألوفة في شارع فؤاد الأول كما في شارع فاروق أو الأوبرا منظر العربات الكارو المحملة بمجموع النسوة اللواتي يطلقن الزغاريد كصفارات الإنذار ابتهاجا بخروج أحد جبابرة المجرمين من سجنه كما لو كان أحد الغزاة الفاتحين ، هذا ولا شك تقدير لرسالة القضاء بعيد كل البعد عن العدل والإنصاف .

كما أنه من المتناقضات العجيبة أن تقف الحركة في أحد الشوارع التي رأيناها انتظارا لمرور حمار — حمار أو حمل يتهادى إلى جانب سيارة باكار أو لنكون ومع الجميع عربة كارو كالتى سبقت الإشارة إليها . كل ذلك على قدم المساواة بدون أى بروتوكول منظم لأسبقية المرور .

لقد رأينا في جولتنا أن الشوارع كالأشخاص بعضها أسعد حظا من الآخر. فمنها الشوارع الشعبية كالحسينية وفاروق، ومنها الشوارع الأرستوقراطية كقصر النيل وسليان باشا. وإذا سألنا عن سر هذا التباين في الحظ وجدناه كتابين الحظ بين الأشخاص . مسألة يختلف الرأي في تعليلها ، ولعلها كذلك لا تخلو من المحاباة والمحسوبية . ووجوه الشبه بين الإنسان والشارع كثيرة، فبعض الشوارع تولد سعيدة محظوظة في فمها ملحقة من ذهب . ثم يجسرى عليها حكم الزمن فتزل عن مكاتها لغيرها من الحديث المستجد . كابن العائلة الذي جار عليه الزمان ، أو الوارث المتلاف الذي ينطبق عليه القول المأثور " أكرموا عزيز قوم ذل " .

فالعتبة المضراء كان لها في الماضي حظها الكبير الذي يحدثنا عنه المتقدمون من الأهل والأصدقاء . كانت مركز النشاط والحركة في القاهرة بمتدياتها للأدب والسمو وبمجلاتها التجارية الفخمة حتى جاء شارع فؤاد وطليلان باشا وغيرهما فانتقل شأنها من حال إلى حال . كذلك يولد بعض الشوارع بتواضعها شعبيا لا يربح له نهوض أو تغيير . ولعل شارع فاروق من أمثلة هذا النوع من الشوارع . قانع بحاله ، ليس فيه أى عنصر من عناصر الكفاح أو العصامية وله على ما أعتقد بين الناس أشباه كثيرون .

وهناك بعد ذلك شوارع لم نرها للأسف في جولتنا ، وهى الشوارع الأصيلة - تلك التى تظل شامخة بنفسها ، رغم ضيقها وتخرجها ، محتفظة على مرور الزمن بخصائصها ومزاياها المستمدة من ماضيها كذوى الحسب والنسب من الأفراد والعائلات ، فمن هذه الشوارع ما يصور لنا لونا عزيزا لطيفا من ألوان البيئة المصرية في عصورها الماضية . كالخيمية وخان الخليل مثلا إذ يعيدان إلى الذهن أسواق القاهرة عاصمة الخلافة ومقر الفاطميين . وهناك نوع آخر من هذه الشوارع تلك التى تتصل بتاريخ البلاد والتى عاصرت عهود نهضتها وازدهارها وتقدمها كالقلعة مثلا التى تتصل بامبراطوريتين مصريتين مستقلتين قامتا على قوة العقيدة والخلق وكانتا مثلا رائعا في الشهامة والفروسية والتبل وهما أمبراطورية يوسف صلاح الدين وكفاحها في سبيل العقيدة الإسلامية ، وأمبراطورية محمد على الكبير وكفاحها في سبيل العقيدة الوطنية وبناء مصر الحديثة ، وهناك أيضا حى الأزهر الذى ظل زمانا طويلا رأس مصر المفكر وذوها الرقاد في كفاحها الطويل وفي أزماتها وتطوراتها الفكرية والقومية .

هذه الأحياء من حقها علينا أن تظل مصونة معززة موفورة التقدير والاحترام لا تستطيع يد التغيير أن تمتد إليها وإلا فقدت شخصيتها وكانت كالعجوز التى نخرجت عن وقارها إلى التصايب ، ومن حقنا على هذه الأحياء أن نستوحىها دروس الماضي وعظائمه ، وكلها مفاتيح لمصر العزيرة وحلقات تاريخية مجيدة ساطعة الجلال والعظمة قامت على قوة الإيمان والمبدأ والخلق والعقيدة ، وما أوجبنا إلى الاستماع إليها وتلقى خير الدروس عنها .

وإذا كان الشارع حقيقة مرآة ل حال البلاد فكيف نتقن أن تنعكس فيه صورة شعب قوى نشيط منظم موحد الفكر والزمى ، ثابت المبدأ عميق الإيمان بالله والوطن ، وأخيرا يقظ مسدد الخطى آمن العثرات ما

عبد الشافى اللبان